القاعدة الأولى

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾

الإنسان مدني بطبعه كما يقال، وكثرة تعاملاته اليومية تحتم عليه الاحتكاك بطوائف من الناس، مختلفي الأفهام والأخلاق، يسمع الحسن وغيره، ويرى ما يستثيره؛ فتأتي هذه القاعدة لتضبط علاقته اللفظية.

إنها قاعدة تكرر ذكرها في القرآن في أكثر من موضع، إما صراحة أو ضمنًا:

فمن المواضع التي توافق هذا اللفظ تقريبًا: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقريب من ذلك: أمره سبحانه بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦].

أما التي توافقها من جهة المعنى فكثيرة كما سنشير إلى بعضها بعد قليل.

إذن: تأمل في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ جاءت في سياق أمر بني إسرائيل بجملة من الأوامر، وهي في سورة مدنية -وهي سورة البقرة- وقال قبل ذلك في سورة مكية -وهي سورة الإسراء- أمرًا عامًا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ

﴿أَحْسَنُ﴾ إذًا فنحن أمام أوامر محكمة، ولا يستثنى منها شيء إلا في حال مجادلة أهل الكتاب كما سبق.

ومن اللطائف مع هذه الآية ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: أن هناك قراءة أخرى: ﴿وقولوا للناس حَسَنًا﴾ بفتح الحاء والسين.

قال أهل العلم: «والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئته، وفي معناه، ففي هيئته: أن يكون باللطف، واللين، وعدم الغلظة والشدة، وفي معناه: بأن يكون خيرًا؛ لأن كل قولٍ حسنٍ فهو خير، وكل قول خير فهو حسن»[1].

إننا نحتاج إلى هذه القاعدة بكثرة، خاصةً وأننا في حياتنا نتعامل مع أصناف مختلفة من البشر، فيهم المسلم وفيهم الكافر، وفيهم الصالح والطالح، وفيهم الصغير والكبير، بل ونحتاجها للتعامل مع أخص الناس بنا: الوالدان، والزوج والزوجة والأولاد، بل ونحتاجها للتعامل بها مع من تحت أيدينا من الخدم ومن في حكمهم.

* من صور تطبيقات هذه القاعدة:

وأنت -أيها المؤمن- إذا قلَّبت القرآن؛ وجدتَ أحوالًا نص عليها القرآن **كتطبيق عملي لهذه القاعدة**، فمثلًا:

١- تأمل قول الله تعالى -عن الوالدين-: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ إنه أمرٌ بعدم النهر، وهو متضمن للأمر بضده: وهو الأمر بالقول الكريم، الذي لا تعنيف فيه.

٢- وكذلك أيضًا فيما يخص مخاطبة السائل المحتاج: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ بل بعض العلماء يرى عمومها في كل سائل! سواء كان سائلًا للمال أو للعلم، قال بعض

---

(١) ينظر: تفسير العثيمين (٣/ ١٩٦).

obeikandl.com

العلماء: «أي: فلا تزجره ولكن تفضل عليه بشيء، أورده بقول جميل»[١].

٣- ومن التطبيقات العملية لهذه القاعدة القرآنية، ما أثنى الله به على عباد الرحمن، بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنى هذه الآية: «وإذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من القول، أجابوهم بالمعروف من القول، والسداد من الخطاب»[٢].

وهم يقولون ذلك «لا عن ضعف ولكن عن ترفع، ولا عن عجز إنما عن استعلاء، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع»[٣].

إن مما يُؤسف عليه أن يرى الإنسان كثرة الخرق لهذه القاعدة في واقع أمة القرآن، وذلك في أحوال كثيرة منها:

١- أنك ترى من يبشرون بالنصرانية يحرصون على تطبيق هذه القاعدة؛ من أجل كسب الناس إلى دينهم المنسوخ بالإسلام، أفليس أهلُ الإسلام أحق بتطبيق هذه القاعدة، من أجل كسب الخلق إلى هذا الدين العظيم الذي ارتضاه الله لعباده؟!

٢- في التعامل مع الوالدين.

٣- في التعامل مع أحد طرفي الحياة الزوجية.

٤- مع الأولاد.

٥- مع العمالة والخدم.

وقد نبهت آية الإسراء إلى خطورة ترك تطبيق هذه القاعدة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ

---

(١) تفسير الألوسي: (٢٣/ ١٥).
(٢) تفسير الطبري: (١٩/ ٢٩٥).
(٣) ينظر: الظلال: (٥/ ٣٣٠).

openkanal.com

﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾، وعلى من ابتلي بسماع ما يكره أن يحاول أن يحتمل أذى من سمع منه، وأن يقول خيرًا، وأن يقابل السفه بالحلم، والقولَ البذيء بالحسن، وإلا فإن السفه والرد بالقول الرديء يُحسِنه كل أحد.

أفتى الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبعض الشعراء بما لا يوافقه، فقال: يا أبا عبد الله، أتظن الأمير لم يكن يعرف هذا القضاء الذي قضيته؟!

قال: بلى.

قال: إنما أرسلنا إليك لتصلح بيننا فلم تفعل، بالله لأقطعن جلدك هجاءًا!

فقال له الإمام مالك:

إنما وصفتَ نفسك بالسفه والدناءة! وهما اللذان لا يعجز عنهما أي أحد، فإن استطعتَ أن تأتي الذي تنقطع دونه الرقاب فافعل: الكرم والمروءة[1] !

---

(١) انظر: ترتيب المدارك (١/ ٥٩).

obeikandl.com

القاعدة الثانية

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾

هذه قاعدة عظيمة لها أثرٌ بالغ في حياة الذين وعوها، واهتدوا بهداها، قاعدة لها صلة بأحد أصول الإيمان العظيمة: ألا وهو(الإيمان بالقضاء والقدر)، وتلكم القاعدة هي قوله سبحانه وتعالى -في سورة البقرة في سياق الكلام على فرض الجهاد في سبيل الله تعالى-: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦][1].

وهذا الخير المُجمَل، فسَّره قوله تعالى في سورة النساء -في سياق الحديث عن مفارقة النساء-: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

فقوله: ﴿خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ مفسِّر وموضِّح للخير الذي ذُكر في آية البقرة، وهي الآية الأولى التي استفتحنا بها هذا الحديث.

---

(١) لابن القيم كلام نفيس في الفوائد يحسن الاستفادة منه (٢٤٦).

obeikandi.com

ومعنى القاعدة باختصار:

أن الإنسان قد يقع له شيء من الأقدار المؤلمة، التي تكرهها نفسه، فربما جزع، أو أصابه الحزن، وظن أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية على آماله وحياته، فإذا بذلك المقدور يصبح خيرًا على الإنسان من حيث لا يدري.

والعكس صحيح: كم من إنسان سعى في شيءٍ ظاهره خيرٌ، واستمات في سبيل الحصول عليه، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه، فإذا بالأمر يأتي على عكس ما يريد.

إنك إذا تأملت الآيتين الكريمتين الأولى والثانية، وجدت أن الآية الأولى - التي تحدثت عن فرض الجهاد- تتحدث عن ألم بدني وجسميٍّ قد يلحق المجاهدين في سبيل الله -كما هو الغالب-، وإذا تأملت الآية الثانية -وهي آية مفارقة النساء- وجدتها تتحدث عن ألم نفسي يلحق أحد الزوجين بسبب فراقه لزوجه!

وإذا تأملت في آية الجهاد؛ وجدتها تتحدث عن عبادة من العبادات، وإذا تأملت آية النساء؛ وجدتها تتحدث عن علاقات دنيوية.

إذًا: فنحن أمام قاعدة تناولت أحوالًا شتى: دينية ودنيوية، وبدنية ونفسية، وهي أحوال لا يكاد ينفك عنها أحد في هذه الحياة التي:

جبلت على كدر وأنت تريدها صفوًا من الأقذاء والأقذار

وقول الله أبلغ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤].

إذا تبين هذا فاعلم أن إعمال هذه القاعدة القرآنية في الحياة من أعظم ما يملأ القلب طمأنينة وراحةً، ومن أهم أسباب دفع القلق الذي عصف بحياة كثير من الناس؛ بسبب موقف من المواقف، أو بسبب قدر من الأقدار المؤلمة جرى عليه في يوم من الأيام!

ولو قلبنا قصص القرآن، وصفحات التاريخ، أو نظرنا في الواقع؛ لوجدنا من ذلك عبرًا وشواهدَ كثيرة، لعلنا نُذَكِّر ببعض منها، عسى أن يكون في ذلك سلوةً لكل محزون، وعبرةً لكل مهموم:

١- قصة إلقاء أم موسى لولدها في البحر!

فأنت إذا تأملتَ وجدتَ أنه لا أَكْرَه لأمِّ موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة في مستقبل الأيام، وهذا ما تعبر عنه خاتمة هذه القاعدة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

٢- وتأمل في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام تجد أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على ما جرى له ولأبيه يعقوب عليهما الصلاة والسلام.

٣- وتأمل في قصة الغلام الذي قتله الخضر بأمر الله تعالى؛ فإنه علل قتله بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ [الكهف:٨٠ - ٨١]، لنقف هنا قليلًا ونتساءل:

كم من إنسان لم يقدِّر الله تعالى أن يرزقه بالولد، فضاق لذلك صدره؟! -وهذا شيء طبعي- لكن الذي لا ينبغي أن يستمر: هو الحزن الدائم، والشعور بالحرمان الذي يقضي على بقية مشاريعه في الحياة!

وليت من حُرِم نعمة الولد يتأمل هذه الآية، ليس ليذهب حزنه فقط، بل ليطمئن قلبه وينشرح صدره، وليته ينظر إلى هذا القَدَر بمنظار النعمة والرحمة، وأن الله تعالى قد يكون صرف هذه النعمة رحمةً به! وما يدريه؟ لعله إذا رُزق بولد أن يكون هذا الولد سببًا في شقاء والديه وتعاستهما، وتنغيص عيشهما! أو تشويه سمعتهما.

٤- وفي مقدمات غزوة بدرٍ، يربي القرآن في أتباعه هذا المعنى، فيقول: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٦]، فكم كتب الله للمؤمنين من الخير والعزة والهيبة للمسلمين بعد هذه الغزوة، التي كره أصحاب النبي ﷺ فيها خيار القتال!

٥- وفي السُنة النبوية أمثلة كثيرة، منها: لما مات زوجُ أمِّ سلمة: أبو سلمة رضي الله عنهما تقول أم سلمة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها».

قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ؟ ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ![1]

فتأمل هذا الشعور الذي انتاب أم سلمة - وهو شعور ينتاب بعض النساء اللاتي يُبتلين بفقد أقوى من تربطهن به علاقة في هذه الحياة ولسان حالهن: ومن خير من أبي فلان؟! - فلما فعلتْ أم سلمة ما أمرها الشرع به من الصبر والاسترجاع وقول المأثور؛ أعقبها الله خيرًا لم تكن تحلم به.

وهكذا المؤمنة يجب عليها أن لا تختصر سعادتها، أو تحصرها في باب واحد من أبواب الحياة، نعم: الحزن العارض هذا شيء لم يسلم منه ولا الأنبياء والمرسلون! إنما الذي لا ينبغي: هو اختصار الحياة أو السعادة في موقفٍ واحد، أو ربطها برجل أو امرأة، أو شيخٍ!

---

(١) مسلم ح (٩١٨).

٦- وفي الواقع قصص كثيرة جدًّا، أذكر منها: أن رجلًا قدم إلى المطار، وكان مجهدًا بعض الشيء، فأخذته نومةٌ ترتب عليها أن أقلعت الطائرة، وفيها ركاب كثيرون يزيدون على ثلاثمائة راكب، فلما أفاق، وإذا بالطائرة قد أقلعت قبل قليل، وفاتته الرحلة، فضاق صدره، وندم ندمًا شديدًا، ولم تمض دقائق على هذه الحال التي هو عليها حتى أُعلن عن سقوط تلك الطائرة، واحتراق من فيها بالكامل!

والسؤال: ألم يكن فوات الرحلة خيرًا لهذا الرجل؟! ولكن أين المعتبرون والمتعظون؟ والخلاصة:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن تتم المقاصد

وأن يتوكل على الله، ويبذل ما يستطيع من الأسباب المشروعة، فإذا وقع شيءٌ على خلاف ما يحب، فليتذكر هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وليتذكر أن من لطف الله بعباده: «أنه يُقدِّر عليهم أنواع المصائب، وضروب المحن والابتلاء بالأمر والنهي الشاق رحمةً بهم ولطفًا، وسوقًا إلى كمالهم، وكمال نعيمهم»[(١)].

ومن ألطاف الله العظيمة: أنه لم يجعل حياة الناس وسعادتهم مرتبطة ارتباطًا تامًا إلا به سبحانه وتعالى، وبقية الأشياء يمكن تعويضها، أو تعويض بعضها:

من كل شيء إذا ضيعته عوضٌ ... وما من الله إن ضيعتهُ عوضُ

◆◆◆◆

(١) تفسير أسماء الله الحسنى (٧٤) للسعدي.

قـواعــد قـرآنـيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

obeikandl.com

القاعدة الثالثة

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

تعتبر هذه الآية قاعدة من القواعد السلوكية التي تدل على عظمة هذا الدين وشموله وعظمة مبادئه، وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق آيات الطلاق في سورة البقرة، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ومعنى القاعدة باختصار: أن الله تعالى يأمر من جمعتهم علاقة من أقدس العلاقات الإنسانية – وهي علاقة الزواج –أن لا ينسوا– في غمرة التأثر بهذا الفراق والانفصال – ما بينهم من سابق العشرة، والمعاملة.

وهذه القاعدة جاءت بعد ذلك التوجيه بالعفو: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ كلُّ ذلك لزيادة الترغيب في العفو والتفضل الدنيوي.

ومع أن النسيان أمرٌ جِبِلّي، ليس بوسع الإنسان دفعه؛ إلا أن الآية الكريمة جاءت بالتأكيد على عدم النسيان، والمراد به هنا: الإهمال وقلة الاعتناء.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل للترغيب في عدم إهمال الفضل،

وتعريض بأن في العفو مرضاة الله تعالى، فهو يرى ذلك منا فيجازي عليه[1].

إن العلاقة الزوجية -في الأعم الأغلب- لا تخلو من جوانب مشرقة، ومن وقفات وفاء من الزوجين لبعضهما، فإذا قُدّر وآل هذا العقد إلى حل عقدته بالطلاق؛ فإن هذا لا يعني نسيان ما كان بين الزوجين من مواقف الفضل والوفاء، ولئن تفارقت الأبدان، فإن الجانب الخلقي يبقى ولا يذهبه مثل هذه الأحوال العارضة.

وما أعظم أثر العفو! فإنه يقرب إليك البعيد، ويُصيِّر العدو صديقًا.

إذا تعارف الناس الفضل بينهم سهُل على المذنب الاعتراف بالذنب، وسهل على من له الحق أن يعفو، بخلاف ما إذا أصبحوا لا يتنازلون عن حقوق ذواتهم.

ولله ما أعظم هذه القاعدة لو تم تطبيقها بين الأزواج! وبين كل من تجمعنا بهم رابطة أو علاقة من العلاقات!

لقد ضرب بعض الأزواج -من الجنسين- أروع الأمثلة في الوفاء، وحفظ العشرة، سواء لمن حصل بينهم وبين أزواجهم فراق بالطلاق، أو بالوفاة.

أذكرُ نموذجًا وقفتُ عليه، ربما يكون نادرًا، وهو لرجل أعرفه شخصيًا، طلق زوجته - التي له منها أولاد - فما كان منه إلا أسكنها في الدور العلوي مع أولاده الذين بقوا عندها، وسكن هو في الدور الأرضي، وصار هو الذي يسدد فواتير الاتصالات والكهرباء ويقوم -تفضلًا- بالنفقة على مطلقته، حتى إن كثيرًا ممن حوله من سكان الحي لا يدرون أنه مطلق! وإني لأحسبه ممن بلغ الغاية في امتثال هذا التوجيه الرباني: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، نعم هذا مثال عزيز، لكني أذكره لأبين أن في الناس خيرًا.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٤٤٣) بتصرف.

وهذا نموذج آخر، لكن يحكيه قاضي القضية: الشيخ علي الطنطاوي، يقول:

«قضية خلاف بين زوجين، طال أمده، واستفحل شره، وانتهى أمره إليّ، وعرض كل منهما دعواه على صاحبه؛ متهمًا إياه بسوء العشرة، ومطالبًا بحقوق عليه!

وألحت المرأة بطلب الطلاق، وبضم الأولاد إليها دون نفقة، وبعد دراسة دقيقة للقضية؛ تبين لي أن لا سبيل للتوفيق بينهما على حالتهما الراهنة؛ فقررت إجراء تجربة الطلاق لمرة واحدة، وعرَضتُ الفكرة عليهما؛ فلم يترددا في قبولها، وأوقع الزوج الطلقة!

وهنا جعلتُ أذكرهما بحق المودة والرحمة والأولاد، وختمت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، وكان لكلامي أثره العاجل؛ فإذا الزوج يقول: إذا كان الأمر للمودة والرحمة والأولاد؛ فإني متنازل عن كل حق لي عليها، ومستعد للإنفاق على أبنائي ما داموا في كفالتها!

وأجابت المرأة على ذلك بأنها هي أيضًا متنازلة له عن مؤخر صداقها!

وكان من أسباب الخلاف بين هذين الزوجين: أن المرأة كلما استاءت من زوجها حاولت الذهاب إلى بيت أهلها؛ فيمنعها أن تصحب متاعها سوى ما تلبسه!

ولكن ما إن صارا إلى هذه النتيجة حتى تغير الحال، وقال الرجل لزوجه: هذا مفتاح البيت؛ فخذي منه ما تحبين، ودعي ما تكرهين!

ولقد كان لهذا الموقف أثره البالغ في نفسي، وأكثر ما راعني منه: تلك الدموع التي ذرفها كل منهما..»[1].

ولنقف قليلًا عند موقف عملي في سيرة من كان القرآن خُلُقه ﷺ لنرى كيف

(١) ينظر: صناع التأريخ خلال ثلاثة قرون. للشيخ عبد العزيز العويد (ص٩٠).

كان يترجم القرآن عمليًا في حياته: وذلك أن أنه ﷺ لما رجع من الطائف، بعد أن بقي شهرًا يدعو أهلها، ولم يجد منهم إلا الأذى، رجع إلى مكة، فدخل في جوار المطعم بن عدي، فأمر أولاده الأربعة فلبسوا السلاح، وقام كل واحد منهم عند الركن من الكعبة، فبلغ ذلك قريشًا فقالوا له: أنت الرجل الذي لا تُخفر ذمتك!

ومات المطعم بن عدي مشركًا، لكن النبي ﷺ لم ينس له ذلك الفضل، فأراد أن يُعبِّر عن امتنانه لقبول المطعم بن عدي أن يكون في جواره، في وقت كانت مكة كلها - إلا نفرًا يسيرًا - ضد النبي ﷺ، فلما انتهت غزوة بدر قال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النَّتْنى لتركتهم له»[1].

والمعنى: لو طلب مني تركهم وإطلاقهم من الأسر بغير فداء لفعلت؛ ذلك مكافأة له على فضله السابق في قبول الجوار، فصلوات الله وسلامه على معلم الناس الخير.

* من صور تطبيقات هذه القاعدة:

في حياتنا مجموعة من العلاقات -سوى علاقة الزواج-: إما علاقة قرابة، أو مصاهرة، أو علاقة عمل، فما أحرانا أن نطبق هذه القاعدة في حياتنا؛ ليبقى الود، ولتحفظ الحقوق، وتتصافى القلوب؛ وإلا فإن مجانبة تطبيق هذه القاعدة الأخلاقية العظيمة، يعني مزيدًا من التفكك، ووأدًا لبعض الأخلاق الشريفة.

ومن العلاقات التي لا يكاد ينفك عنها أحدنا: علاقة العمل - سواء كان حكوميًا أو خاصًا، أو تجارةً -، فقد تجمعنا بأحد من الناس علاقة عمل، وقد تقتضي الظروف أن يحصل الاستغناء عن أحد الموظفين، أو انتقال أحد الأطراف إلى مكان

---

(١) البخاري ح (٢٩٧٠).

عمل آخر برغبته واختياره، وهذا موضع من مواضع هذه القاعدة؛ فلا ينبغي أن يُنسى الفضل بين الطرفين، فكم هو جميل أن يبادر أحد الطرفين إلى إشعار الطرف الآخر: أنه وإن تفرقنا - بعد مدة من التعاون - فإن ظرف الانتقال لا يمكن أن ينسينا ما كان بيننا من وُدٍ واحترام، وتعاونٍ على مصالح مشتركة؛ ولذا فإنك تُكْبر أولئك الأفراد، وتلك المؤسسات التي تُعبِّر عن هذه القاعدة عمليًا بحفل تكريمي أو توديعي لذلك الطرف؛ فإن هذا من الذكريات الجميلة التي لا ينساها المحتَفَى به، وإذا أردتَ أن تعرف موقع وأثر مثل هذه المواقف الجميلة؛ فانظر إلى الأثر النفسي السلبي الذي يتركه عدم المبالاة بمن بذلوا وخدموا في مؤسساتهم الحكومية أو الخاصة لعدة سنوات، فلا يصلهم ولا خطاب شكر!

ومن ميادين تطبيق هذه القاعدة: الوفاء للمعلمين، وحفظ أثرهم الحسن في نفس المتعلم، وأعرف معلمًا من رواد التعليم في إحدى مناطق بلادنا[1]، ضرَب مثالًا قيمًا للوفاء؛ إذ لم يقتصر وفاؤه لأساتذته الذين درسوه، بل امتد لأبنائهم حينما مات أساتذته -رحمهم الله-، ويزداد عجبك حين تعلم أنه يتواصل معهم وهم خارج المملكة، سواء في مصر أو الشام، فلله در هذا الرجل، وأكثرَ في الأمة من أمثاله.

ورحم الله الإمام الشافعي يوم قال: «الحر من حفظ وداد لحظة، ومن أفاده لفظة».

وفي واقعنا مواضع كثيرة لتفعيل هذه القاعدة القرآنية الكريمة:

فللجيران الذين افترقوا منها نصيب، ولجماعة المسجد منها حظ، بل حتى العامل والخادم الذي أحسن الخدمة، ولهذه القاعدة حضورها القوي في المعاملة، حتى قال بعض أهل العلم: «من بركة الرزق: أن لا ينسى العبد الفضل في المعاملة، كما قال تعالى:

---

(١) هو الأستاذ: عبد العزيز بن إبراهيم الخريف، من وجهاء حريملاء.

openkan.com

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ بالتيسير على الموسرين، وإنظار المعسرين، والمحاباة عند البيع والشراء، بما تيسر من قليل أو كثير، فبذلك ينال العبد خيرًا كثيرًا»[1].

نسأل الله تعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق والأعمال؛ لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يعيذنا من سيئها؛ لا يعيذ منها إلا هو سبحانه.

◆◆◆◆

(١) بهجة قلوب الأبرار (٣٧).

obeikandl.com

القاعدة الرابعة

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾

هذه قاعدة من قواعد التعامل مع النفس[1]، ووسيلة من وسائل علاجها من أدوائها، وهي في الوقت نفسه سلّمٌ لتترقى في مراقي التزكية، فإن الله تعالى قد أقسم أحد عشر قسمًا في سورة الشمس على هذا المعنى العظيم، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

ومعنى القاعدة باختصار: أن الإنسان وإن حاول أن يجادل عن أفعاله أو أقواله التي يعلم من نفسه بطلانها أو خطأها، واعتذر عن نفسه باعتذارات، فهو يعرف تمامًا ما قاله وفعله، ولو حاول أن يستر نفسه أمام الناس، أو يلقي الاعتذارات، فلا أحد أبصر ولا أعرف بما في نفسه من نفسه.

وتأمل كيف جاء التعبير بقوله: «بصيرة» دون غيرها من الألفاظ؛ لأن البصيرة متضمنة معنى الوضوح والحجة، كما يقال للإنسان: أنت حجة على نفسك!

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٨): «وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَجْرَى الْمَثَلِ لِإِيجَازِهَا وَوَفْرَةِ مَعَانِيهَا».

obeikandl.com

*** من صور تطبيقات هذه القاعدة:**

إن لهذه القاعدة القرآنية مجالات كثيرة في واقعنا العام والخاص، أذكر بعضها؛ لعلنا أن نفيد منها في تقويم أخطائنا، وتصحيح ما ندّ من سلوكنا، فمن ذلك:

١- في طريقة تعامل بعض الناس مع النصوص الشرعية:

فلربما بلغ البعضَ نصٌّ واضح محكمٌ، لم يختلف العلماء في دلالته على إيجاب أو تحريم، أو تكون نفسه اطمأنت إلى حكمٍ ما، ومع هذا تجد البعض يقع في نفسه حرجٌ! ويحاول أن يجد مدفعًا لهذا النص أو ذاك؛ لأنه لم يوافق هواه!

ورحم الله ابن القيم حيث قال: «فسبحان الله! كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص، وبودهم أن لو لم تَرِدْ؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجىً في حلوقهم منها ومن موردها؟»[(١)].

ولا ينفع الإنسان أن يحاول دفع النصوص بالصدر؛ فالإنسان على نفسه بصيرة، وشأن المؤمن أن يكون كما قال ربنا تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

يقول ابن الجوزي، في كتابه الماتع (صيد الخاطر) -وهو يحكي مشاعر إنسان يعيش هذه الحال مع النصوص الشرعية-: «قال بعض المعتبرين: قدرتُ مرة على لذة ظاهرها التحريم، وتحتمل الإباحة؛ إذ الأمر فيها متردد، فجاهدت النفس فقالت: أنتَ ما تقدر فلهذا تترك! فقَارِب المقدورَ عليه، فإذا تمكنتَ فتركتَ؛ كنت تاركًا حقيقة! ففعلتُ وتركتُ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرتني فيه نفسي الجواز

---

(١) الرسالة التبوكية، وتسمى أيضًا: زاد المهاجر.

-وإن كان الأمر يحتمل-؛ فلما وافقتها أثّر ذلك ظلمة في قلبي؛ لخوفي أن يكون الأمر محرمًا، فرأيت أنها **تارةً** تقوى عليّ بالترخص والتأويل، **وتارةً** أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع، فإذا ترخصتُ لم آمن أن يكون ذلك الأمر محظورًا، ثم أرى عاجلًا تأثير ذلك الفعل في القلب، فلما لم آمن عليها بالتأويل...» إلى أن قال: «فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن، وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملًا ومؤديًا إلى ما لا يجوز»[(١)] انتهى كلامه.

٢- ومن مجالات تفعيل هذه القاعدة -في مجال التعامل مع النفس-:

- أن من الناس من شُغف -عياذًا بالله- بتتبع أخطاء الناس وعيوبهم، مع غفلة عن عيوب نفسه، كما قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لهذه الآية: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾: إذا شئت والله رأيته بصيرًا بعيوب الناس وذنوبهم، غافلًا عن ذنوبه[(٢)]، وهذا -بلا ريب- من علامات الخذلان، كما قال بكر بن عبد الله المزني: إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس، ناسيًا لعيبه؛ فاعلموا أنه قد مُكِرَ بِهِ.

ويقول الشافعي: بلغني أن عبد الملك بن مروان قال للحجاج بن يوسف: ما من أحد إلا وهو عارف بعيوب نفسه، فعب نفسك ولا تخبىء منها شيئًا[(٣)]، ولهذا يقول أحد السلف: أنفع الصدق أن تُقر لله بعيوب نفسك[(٤)].

- **ومن مواضع تطبيق هذه القاعدة:** أن ترى بعض الناس يجادل عن نفسه في بعض المواضع - التي تَبَين فيها خطؤه - بما يعلم في قرارة نفسه أنه غير مصيب، كما

---

(١) صيد الخاطر: (٢٠٣-٢٠٤).
(٢) تفسير الطبري: (٢٤/ ٦٣).
(٣) حلية الأولياء: (٩/ ١٤٦).
(٤) حلية الأولياء: (٩/ ٢٨٢).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذه الآية: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها، وهو يبصرها بخلاف ذلك[1].

- ومن دلالات هذه القاعدة الشريفة:

أن يسعى المرء إلى التفتيش عن عيوبه، وأن يسعى في التخلص منها قدر الطاقة، فإن هذا نوع من جهاد النفس المحمود، وأن لا يركن إلى ما فيه من عيوب أو أخطاء، بحجة أنه نشأ على هذا الخلق أو ذاك، أو اعتاد عليه، فإنه لا أحد من الناس أعلم منك بنفسك وعيوبها وأخطائها وذنوبها، وما تسره من أخلاق.

وإليك هذا النموذج المشرق من حياة الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول -في تقرير هذا المعنى-:

«كانت فيَّ عيوب، فلم أزل بالرياضة واطّلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين - في الأخلاق وفي آداب النفس - أعاني مداواتها، حتى أعان الله عَزَّ وَجَلَّ على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه، **وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو الإقرار بها**؛ ليتعظ بذلك متعظ يومًا إن شاء الله»[2].

ثم ساق الإمام ابن حزم جملة من العيوب التي كانت فيه، وكيف حاول التغلب عليها، ومقدار ما نجح فيه نجاحًا تامًا، وما نجح فيه نجاحًا نسبيًا.

- ومن مواطن استفادة المؤمن من هذه القاعدة:

أن الإنسان ما دام يعلم أنه أعلم بنفسه من غيره؛ وجب عليه أن يتفطن أن الناس قد يمدحونه في يومٍ من الأيام، بل قد يُفرطون في ذلك، وفي المقابل قد يسمع

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٤٤٥).

(٢) رسائل ابن حزم: (١/ ٣٥٤).

يومًا من الأيام من يضع من قدره، أو يخفض من شأنه بنوع من الظلم والبغي، فمن عرف نفسه لم يغتر بمدحه بما ليس فيه، ولم يتضرر بذمه بما ليس فيه، بل يستفيد من ذلك بتصحيح ما فيه من أخطاء، ويسعى لتكميل نفسه بأنواع الكمالات البشرية قدر المستطاع.

ومن أشرف مجالات تطبيق هذه القاعدة:

أن من أكبر ثمرات البصيرة بالنفس: أن يوفَّق الإنسان إلى الاعتراف بالذنب والخطأ، وهذا مقام الأنبياء والصديقين والصالحين:

فتأمل في قول أبوينا -حين أكلا من الشجرة-: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقولِ نوح عليه السلام -عندما نهاه الله أن يسأله ما ليس به علم-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وقولِ موسى عليه السلام -ندمًا على قتله القبطي-: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، في سلسلة متتابعة كان من آخرها: ما أثبته القرآن عن أولئك المنافقين الذين اعترفوا بذنوبهم؛ فسلموا وتيب عليهم، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] «فعلم أن من لم يعترف بذنبه كان من المنافقين»[(١)].

أسأل الله تعالى أن يبصرنا بعيوبنا، وأن يقينا شرها.

◆◆◆◆

(١) الصارم المسلول: (١/ ٣٦٢).

قـواعــد قـرآنـيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

obeikandl.com

القاعدة الخامسة

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾

جاءت هذه القاعدة في سياق قصة موسى مع فرعون وسحرته، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٥٦- ٦٢].

والافتراء يطلق على معانٍ منها: الكذب، والشرك، والظلم، وقد جاء القرآن بهذه المعاني الثلاث، وكلها تدور على الفساد والإفساد[(١)].

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤكدًا اطراد هذه القاعدة: «وقد ضمن سبحانه أنه لا بد أن يُخيِّب أهل الافتراء ولا يهديهم، وأنه يُسحتهم بعذابه، أي يستأصلهم»[(٢)].

* ومن صور تطبيقات هذه القاعدة:

إذا تأملتَ هذه القاعدة وجدتَ في الواقع -وللأسف- من له منها نصيب وافر، ومن ذلك:

---

(١) مفردات الراغب: (٦٣٤).

(٢) الصواعق المرسلة: (٤/ ١٢١٢).

obeikandl.com

١ - الكذب والافتراء على الله، بالقول عليه بغير علم بأي صورة من الصور، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد دلّ القرآن على أن القول على الله بغير علم أعظم المحرمات على الإطلاق! قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأنت إذا تأملت في هذا الأمر؛ وجدت أن المشرك إنما أشرك لأنه قال على الله بغير علم!

ومثله الذي يحلل الحرام أو يحرم الحلال، كما حكاه الله تعالى عن بعض أحبار بني إسرائيل.

ويدخل فيها الذين يفتون بغير علم، فهم من جملة المفترين على الله سبحانه وتعالى، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وكلُّ من تكلم في الشرع بغير علم فهو من المفترين على الله: سواء في باب الأسماء والصفات، أو في أبواب الحلال والحرام، أو في غيرها من أبواب الدين.

ولأجل هذا كان كثير من السلف يتورع أن يجزم بأن ما يفتي به هو حكم الله - إذا كانت المسألة لا نص فيها، ولا إجماع- قال بعض السلف: «ليتق أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم كذا فيقول الله له: كذبت! لم أحل كذا ولم أحرم كذا!»[(١)].

ولهذا لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حكمًا حكَم به، فقال: «هذا ما أرى اللهُ أميرَ المؤمنين عمر»! فقال: لا تقل هكذا، ولكن قل: «هذا

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ٣٩).

ما رأى عمر، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر»[(١)].

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لم يكن من أمر الناس، ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحدًا أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسنًا فينبغي هذا ولا نرى هذا»[(٢)].

فعلى من لم يكن عنده علم فيما يتكلم به أن يُمسك لسانه، وعلى من تصدر لإفتاء الناس أن يراعي هدي السلف في هذا الباب؛ فإنه خير وأحسن تأويلًا.

٢- ومن صور تطبيقات هذه القاعدة:

ما يفعله بعض الوضاعين للحديث -في قديم الزمان وحديثه- الذين يكذبون على النبي ﷺ ويفترون عليه: إما لغرض -هو بزعمهم- حسنٌ كالترغيب والترهيب، أو لأغراض سياسية، أو مذهبية، أو تجارية، كما وقع ذلك وللأسف منذ أزمنة متطاولة!

ولو استشعر كل من يضع الحديث على النبي ﷺ أنه من جملة المفترين -وأنه لن يفلح سعيه، بل هو خائب، كما قال ربنا: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾- لارعوى كثير من هؤلاء عن غيهم، ولا ينفعه ما يظنه قصدًا حسنًا - كما زعم بعض الوضاعين - فإن مقام الشريعة عظيم، وجنابها مصان ومحترم، وقد أكمل الله الدين، فلا يحتاج إلى حديث موضوع ومختلق، وليست شريعةٌ تلك التي تبنى على الكذب، وعلى منْ؟ على رسولها ﷺ؟

ومن المؤسف أن يرى لسوق الأحاديث الضعيفة والمكذوبة رواجٌ في هذا العصر

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠١٣٥).

(٢) إعلام الموقعين: (١/ ٣٩).

بواسطة الإنترنت، أو رسائل الجوال؛ فليتق العبد ربه، ولا ينشرن شيئًا ينسب إلى النبي ﷺ حتى يتثبت من صحته عنه.

٣- ومن صور تطبيقات هذه القاعدة القرآنية الكريمة المشاهدة في الواقع:

ما يقع من بعضهم -وللأسف الشديد- مِن ظلم وبغي على إخوانهم المسلمين، وهذا له أسبابه الكثيرة، لعل من أبرزها: الحسد -عياذًا بالله منه-، والطمع في شيء من لعاعة الدنيا، أو لغير ذلك من الأسباب، ويَعْظُمُ الخطب حينما يُلبِسُ بعضُ الناس صنيعه لبوسَ الدين؛ ليبرر بذلك فعلته في الوشاية بفلان، والتحذير من فلان بغيًا وعدوانًا.

ولقد وقفتُ على كثير من القصص في هذا الباب، منها القديم ومنها المعاصر اعترفَ أصحابها بها، وهي قصص تدمي القلب، وتفتت الكبد؛ بسبب ما ذاقوه من عاقبة افترائهم وظلمهم لغيرهم، أكتفي من ذلك بثلاثة مواقف؛ لعل في ذكرها عظةٌ وعبرة:

١- لما جلس المتوكل -الخليفة العباسي- دخل عليه عبد العزيز بن يحيى الكناني فقال: يا أمير المؤمنين! ما رُؤي أعجب من أمر الواثق! قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن! قال: فوجد المتوكل من ذلك، وساءه ما سمعه في أخيه، إذ دخل عليه محمد بن عبد الملك الزيات، فقال له: يا ابن عبد الملك، في قلبي من قتل أحمد بن نصر! فقال: يا أمير المؤمنين! أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!

قال: ودخل عليه هرثمة، فقال: يا هرثمة، في قلبي من قتل أحمد بن نصر! فقال: يا أمير المؤمنين! قطّعني الله إرْبًا إرْبًا إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!

قال: ودخل عليه أحمد بن أبي دؤاد، فقال: يا أحمد، في قلبي من قتل أحمد بن نصر! فقال: يا أمير المؤمنين! ضربني الله بالفالج إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!

قال المتوكل: فأما الزيات فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فإنه هرب وتبدى واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة، هذا الذي قتل أحمد بن نصر؛ فقطعوه إرْبًا إرْبا!

وأما أحمد بن أبي دؤاد، فقد سجنه الله في جلده[1]!!

٢- تحدثتْ إحداهن -وهي أستاذة جامعية ومطلقة مرتين- فقالت: حدَثَت قصتي مع الظلم قبل سبع سنوات، فبعد طلاقي الثاني قررتُ الزواج بأحد أقاربي الذي كان ينعم بحياة هادئة مع زوجته وأولاده الخمسة، حيث اتفقت مع ابن خالتي - الذي كان يحب زوجة هذا الرجل - اتفقنا على اتهامها بخيانة زوجها! وبدأنا في إطلاق الشائعات بين الأقارب، ومع مرور الوقت نجحنا، حيث تدهورت حياة الزوجين وانتهت بالطلاق!

وبعد مضي سنة تزوجت المرأةُ - التي طُلقت بسبب الشائعات - برجل آخر ذي منصب، أما الرجل فتزوج امرأة غيري!، وبالتالي لم أحصل مع ابن خالتي على هدفنا المنشود، ولكنا حصلنا على نتيجة ظلمنا؛ حيث أُصِبت بسرطان الدم!

أما ابن خالتي فقد مات حَرقًا مع الشاهد الثاني؛ بسبب التماس كهربائي في الشقة التي كان يقيم فيها، وذلك بعد ثلاث سنوات من القضية.

٣- أما ثالث هذه المواقف فيرويه شخص اسمه(حَمَد) يقول: عندما كنتُ طالبًا في المرحلة الثانوية حدثت مشاجرة بيني وبين أحد الطلاب المتفوقين، فقررت -بعد تلك المشاجرة- أن أدمر مستقبله، فحضرت ذات يوم مبكرًا إلى المدرسة، ومعي

---

(١) تهذيب الكمال: (١/ ٥١١)، طبقات الشافعية الكبرى: (٢: ٥٣).

openkandil.com

مجموعة من سجائر الحشيش – التي كنا نتعاطاها – ووضعتها في حقيبة ذلك الطالب، ثم طلبت من أحد أصدقائي إبلاغ الشرطة بأن في المدرسة مروج مخدرات، وبالفعل تمت الخطة بنجاح، وكنا نحن الشهود الذين نستخدم المخدرات.

يقول حَمَد هذا: ومنذ ذلك اليوم وأنا أعاني نتيجة الظلم الذي صنعته بيدي، فقبل سنتين تعرضت لحادث سيارة فقدتُ بسببه يدي اليمُنى، وقد ذهبت للطالب في منزله أطلب منه السماح، ولكنه رفض لأنني تسببت في تشويه سمعته بين أقاربه حتى صار شخصًا منبوذًا من الجميع، وأخبرني بأنه يدعو عليّ كل ليلة؛ لأنه خسر كل شيء بسبب تلك الفضيحة، ولأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب فقد استجاب الله دعوته، فها أنا بالإضافة إلى يدي المفقودة أصبحت مقعدًا على كرسي متحرك نتيجة حادث آخر! ومع أني أعيش حياة تعيسة، فإني أخاف من الموت؛ لأني أخشى عقوبة رب العباد[1].

(١) نشرت هذه القصص في مقال للكاتب محمد بن عبد الله المنصور، بعنوان: (رسالة بلا عنوان!) في جريدة اليوم الإلكترونية، عدد (١١٨٥٤)، الاثنين٢٦/ ١٠/ ١٤٢٦هـ، الموافق: ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٥م.

obeikandl.com

القاعدة السادسة

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾

هذه قاعدة من قواعد بناء المجتمع، وإصلاحه، وتدارك أي سبب لتفككه، وقد وردت هذه القاعدة في سياق الحديث عما قد يقع بين الأزواج من أحوال قد تؤدي إلى الاختلاف والتفرق، وأن الصلح بينهما على أي شيء يرضيانه خير من تفرقهما، يقول سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٨].

ويمكننا القول: إن جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الإصلاح بين الناس هي من التفسير العملي لهذه القاعدة القرآنية المتينة.

ومن المناسبات اللطيفة أن ترد هذه الآية في سورة النساء، وهي نفس السورة التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥].

يقول ابن عطية -مؤكدًا اطّراد هذه القاعدة-: «وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ لفظٌ عام مطلق، يقتضي أن الصلح الحقيقي -الذي تسكن إليه النفوس ويزول به

الخلاف- خيرٌ على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين على ما ذكرنا خير من الفرقة»[1].

ومعنى الآية باختصار:

أنه «إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي: تَرفُّعه عنها، وعدمَ رغبتِه فيها وإعراضه عنها، فالأحسن -في هذه الحالة- أن يصلحا بينهما صلحًا؛ بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها: إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن، أو القسم بأن تُسقط حقها منه، أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾.

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى: أن الصلح بين من بينهما حقٌّ أو منازعة -في جميع الأشياء- أنه خيرٌ من استقصاء كل منهما على كل حقه؛ لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح.

وهو -أي الصلح- جائزٌ في جميع الأشياء إلا إذا أحل حرامًا أو حرم حلالًا، فإنه لا يكون صلحًا، وإنما يكون جورًا.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك ونبه على أنه خير، والخيرُ كلُّ عاقلٍ يطلبه ويرغب فيه، فإن كان -مع ذلك- قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلبا له ورغبة فيه.

---

(١) المحرر الوجيز: (٢/ ١٤١).

وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] أي: جبلت النفوس على الشح: وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له؛ فالنفوس مجبولة على ذلك طبعًا، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده وهو السماحة: بذل الحق الذي عليك، والاقتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومُعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه؛ فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر»[(١)].

ومن تأمل القرآن، وجد سعة هذه القاعدة من جهة التطبيق، فبالإضافة إلى ما سبق ذِكره -من الإصلاح بين الأزواج- فإننا نجد في القرآن حثًا على الإصلاح بين الفئتين المقتتلتين، ونجده يثني ثناء ظاهرًا على الساعِين في الإصلاح بين الناس: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

بل تأمل في افتتاح سورة الأنفال؛ فإنك واجدٌ عجبًا، فإن الله تعالى افتتح هذه السورة بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]، فلم يأت الجوابُ عن الأنفال مباشرة، بل جاء الأمر بالتقوى وإصلاحِ ذاتِ البين، وطاعةِ الله ورسوله؛ لأن إغفال هذه الأصول الكبار سببٌ عظيم في شر عريض، ولعل من أسرار إرجاء الجواب عن هذا التساؤل: لبيان أن التقاتل على الدنيا -ومنها الأنفال (وهي الغنائم)-

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٠٧).

سببٌ في فسادِ ذات البين؛ ولهذا جاء الجواب عن سؤال الأنفال بعد أربعين آية من هذا السؤال.

ولأهمية هذا الموضوع -أعني الإصلاح-: أجازت الشريعة أخذ الزكاة لمن غرم بسبب الإصلاح بين الناس.

إذا تقرر هذا المعنى المتين والشامل لهذه الآية الكريمة: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾؛ فمن المهم -لنستفيد من هذه القاعدة القرآنية- أن نسعى لتوسيع مفهومها في حياتنا العملية، وأصدق شاهد على ذلك سيرة نبينا ﷺ، الذي طبق هذه القاعدة في حياته، وهل كانت حياته إلا صلاحًا وإصلاحا!

المصلحون أصابعٌ جُمِعت يدًا هي أنتَ، بل أنت اليدُ البيضاءُ

- ومن أمثلة ذلك: أنه ﷺ حينما كبرت زوجه أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، ووقع في نفسه أن يفارقها، فكانت تلك المرأة عاقلة رشيدة؛ فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، **فقبِل ذلك منها**، وأبقاها على ذلك.

- طبق النبي ﷺ هذه القاعدة في قصة بريرة -وهي أَمَةٌ قد أعتقتها عائشة رضي الله عنها- فكرهتْ أن تبقى مع زوجها، الذي كان شديد التعلق بها، حتى قال ابن عباس رضي الله عنه -وهو يصف حب مغيث لبريرة-: لكأني به في طرق المدينة ونواحيها، وإن دموعه لتسيل على لحيته؛ يترضاها لتختاره فلم تفعل![1]، فقال النبي ﷺ: «لو راجعتِه»! قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه[2].

فانظر كيف حاول ﷺ أن يكون واسطة خير بين زوجين انفصلا، وشفع لأحد الطرفين لعله يقبل، فلم يشأ أن يجبر؛ لأن من أركان الحياة الزوجية الحب، والرغبة!

---

(١) الترمذي ح (١١٥٦).

(٢) البخاري ح (٥٢٨٣).

- خرج مرة ﷺ إلى أهل قباء، لما أُخْبِرَ أنهم اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم»[1].

وعلى هذه الجادة النبوية سار تلاميذه النجباء، من أصحابه الكرام وغيرهم ممن سار على نهجهم، ومن ذلك:

- خروج ابن عباس رضي الله عنه لمناظرة الخوارج - الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه - فرجع منهم عدد كبير.

ومن قلّب كتب السِّيَر؛ وجد نماذج مشرقة لجهود فردية في الإصلاح بين الناس على مستويات شتى، ولعل مما يبشر بخيرٍ: ما نراه من لجان إصلاح ذات البين، والتي هي في الحقيقة ترجمة عملية لهذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾.

فهنيئًا لمن جعله الله من خيار الناس، الساعين في الإصلاح بينهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) البخاري ح (٢٥٤٧).

obeikandl.com

قـواعــد قـرآنـيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

obeikandl.com

القاعدة السابعة

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾

هذه قاعدة من قواعد التعامل الإنساني، والتي جاءت في سياق الحديث عن موقفٍ سجَّله القرآن لبيان أصناف المعتذرين عن غزوة تبوك -التي وقعت في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة- ومن هم الذين يُعذَرون والذين لا يُعذَرون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٩٠-٩٣].

ومعنى القاعدة باختصار: «ليس على أهل الأعذار الصحيحة -من ضعف أبدان،

أو مرض أو زَمَانة[1]، أو عدم نفقةٍ- إثمٌ، بشرط لا بد منه، وهو: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟﴾ أي: بِنِيَّاتهم وأقوالهم، سرًا وجهرًا، بحيث لم يُرجِفوا بالناس، ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا...، ثم أكّد الرجاء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[2].

وبما أن (**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**) - كما هو مقرر في علم أصول التفسير - فهذا يعني توسيع دلالة هذه القاعدة القرآنية التي دل عليها قوله سبحانه: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

وهذا يدل على أن الأصل هو سلامة المسلم من أن يُلزَم بأي تكليف سوى تكليف الشرع كما أن الآية تدل بعمومها أن الأصل براءة الذمة من إلزام الإنسان بأي شيء فيما بينه وبين الناس حتى يثبت ذلك بأي وسيلة من وسائل الإثبات المعتبرة شرعًا.

أيها المتأمل كلام ربه:

لقد كانت هذه الآية -ولا زالت- دليلًا يفزع إليه العلماء في الاستدلال بها في أبواب كثيرة في الفقه، خلاصته يعود إلى أنه «مَن أحسن على غيره، في نفسه أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن؛ لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرِّط، أن عليه الضمان»[3].

---

(١) «الزَّمَانَةُ لُغَةً: الْبَلاَءُ وَالْعَاهَةُ، يُقَال: زَمِنَ زَمَنًا وَزَمِنَةً وَزَمَانَةً: مَرِضَ مَرَضًا يَدُومُ زَمَانًا طَوِيلاً، وَضَعُفَ بِكِبَرِ سِنٍّ أَوْ مُطَاوَلَةِ عِلَّةٍ. فَهُوَ زَمِنٌ وَزَمِينٌ، وَلاَ يَخْرُجُ اسْتِعْمَال الْفُقَهَاءِ لِهَذَا اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ، قَال زَكَرِيَّا الأَْنْصَارِيُّ: الزَّمِنُ هُوَ الْمُبْتَلَى بِآفَةٍ تَمْنَعُهُ مِنَ الْعَمَل» الموسوعة الفقهية الكويتية: (٢٤/ ١٠).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٣/ ٧٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٦٤).

(٣) تفسير السعدي (ص٣٤٧).

وإذا تجاوزنا الجانب الفقهي الذي أشرتُ إليه بإجمال، فلنتلفت قليلًا إلى ميدان من الميادين التي نحتاج فيها إلى هذه القاعدة، ذلك أن حياتنا تحفلُ بمواقف كثيرة يُفْتَحُ فيها باب الإحسان، وتتاح لآخَرين أن يحسنوا إلى غيرهم فيبادروا بتقديم خدمة ما، وأول هؤلاء هم أهل بيت الإنسان: من زوجة أو زوج أو ولد! فمن المؤسف أن يتجانف البعض هداية هذه القاعدة القرآنية، فيُلحقوا غيرهم اللوم والعتاب الشديد، مع أنهم محسنون متبرعون، فيساهمون بذلك - شعروا أم لم يشعروا - في إغلاق باب الإحسان، أو تضييق دائرته بين العباد.

تأمل هذه الصورة:

يجتهد أحد الناس في محاولة إتقان عملٍ دعوي، أو اجتماعي، أو عائلي، ويبذل جهده، وربما ماله، وهو في هذه الأثناء يطلب من غيره أن يساعده ويعينه على العمل فلا يجد أحدًا، فيبدأ وحده، ويجتهد ويثابر ليُنجح العمل، ويُظهره بالمظهر المشرِّف، فإذا جاءت ساعة الاستفادة من هذا العمل، وظهرت بعضُ الثغرات، وبعضُ النقص الذي لا يسلم منه عمل البشر، فإذا به - بدلًا من أن يُقابَل بالشكر والتقدير، مع التنبيه على الأخطاء بأسلوب لطيف- يُقابَل بعاصفة من اللوم والعتاب!، مع أن هذا الشخص قد يكون استنجد بغيره للمساعدة فلم يُنجَد، فواصل العمل وحده، فلما حانت ساعة قطاف الثمرة، لم يجد إلا اللوم والعتاب!، بسبب قلة حيلته، وضعف قدرته، أليس هذا من أحق الناس بقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾؟!

ثم أليس أولئك خليقون أن يقال لهم:

أقلـوا عليهم لا أبـا لأبيكمُ من اللوم، أو سدوا المكان الذي سدوا[1]

(١) هذا من شعر الحطيئة، انظر: الكامل في اللغة والأدب (٢/ ١٣٧).

وأمثال هذه الصورة تتكرر في مواقف أخرى؛ في البيت، في المدرسة، في المؤسسة، وفي الشركة، وفي الدائرة الحكومية، وفي العمل الإعلامي، مع العلماء والدعاة والمحتسبين، ومع غيرهم، فما أحوجنا إلى استشعار هذه القاعدة، وطريقة التعامل مع أوهام أو أخطاء المحسنين؛ لكي لا ينقطع باب الإحسان، فإنه إذا كثر اللوم على المحسنين والمتبرعين، وتقاعس من يُفترض منهم العمل، فمن يبقى للأمة؟!

وهذا كلّه -بلا ريب- لا يعني التنبيه على الأخطاء، أو التذكير بمواضع الصواب التي كان يفترض أن يُنبه عليها، لكن المهم أن يكون ذلك بأسلوب يحفظ جهد المحسن، ولا يفوت فرصة التنبيه على الخطأ؛ ليرتقي العمل، ويزداد جودة وجمالًا.

ومن المهم أيضًا - ونحن نتحدث عن هذه القاعدة القرآنية - أن لا نخلط بين ما تقدم وبين التزام الإنسان بشيءٍ ما، ثم يتخلى عنه بحجة أنه محسن! فإن هذا من الفهم المغلوط لهذه القاعدة، ذلك أن الإنسان قبل أن يلتزم بوعد لطرف آخر؛ فهو في دائرة الفضل والإحسان، لكن إن التزم بتنفيذ شيءٍ، والقيام به، فقد انتقل إلى دائرة الوجوب الذي يستحق صاحبه الحساب والعتاب، **ولعل مما يُقرِّب تصور هذا المعنى**: النذر؛ فإن النذر: إلزام المكلف نفسه بشيءٍ لم يكن واجبًا عليه بأصل الشرع، كمن ينذر أن يتصدق بألف ريال، فهذا قبل نذره لا يلزمه أن يتصدق ولو بريال واحد، لكنه لما نذر فقد التزم؛ فوجب عليه الوفاء. وهكذا ما نحن بصدده، وإنما نبهت على هذا لأن من الناس من أساء فهم هذه القاعدة، وطردها في غير موضعها، فصار ذلك سببًا في وجود النفرة بين بعض الناس؛ لأن أحد الطرفين اعتقد التزام الطرف الآخر، فاعتمد عليه -بعد الله- ثم تخلى ذلك الطرف عما التزم؛ بحجة أنه محسن! فوقع خلاف المقصود من باب الإحسان.

القاعدة الثامنة

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة، تؤسس لمبدأ من أشرف المبادئ، وهو مبدأ العدل، وهي قاعدة طالما استشهد بها العلماء والحكماء؛ لعظيم أثرها في باب العدل والإنصاف، تلكم هي ما دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧][(١)].

ومعنى هذه القاعدة باختصار: أن المكلفين إنما يجازون بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وأنه لا يحمل أحدٌ خطيئة أحد، ما لم يكن سببًا فيها، وهذا من كمال عدل الله تبارك وتعالى وحكمته.

ولعل الحكمة من التعبير عن الإثم بالوزر؛ لأن الوزر هو الحمل -وهو ما يحمله المرء على ظهره- فعبر عن الإثم بالوزر لأنه يُتَخيَّلُ ثقيلًا على نفس المؤمن[(٢)].

وهذه القاعدة القرآنية -بهذا النص- تكرر تقريرها في كتاب الله تعالى خمس مرات، وهذا - بلا شك - له دلالته ومغزاه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه القاعدة ليس من خصائص هذه الأمة المحمدية، بل هو عام في جميع الشرائع، تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا

---

(١) وقد نص على كونها قاعدة: الإمامُ محمد بن عبد الوهاب في تفسيره (٥٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٥/ ٢٩٣).

obeikandl.com

﴿وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٣ - ٤١].

وهذا المعنى الذي قررتْه القاعدة لا يُعارِض ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقولُه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ لأن هذه النصوص تدل على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن الدعاة إلى الهدى يثيبهم الله على عملهم وعمل من اهتدى بهديهم، واستفاد من علمهم.

ولهذا لما اجتهد جماعة من صناديد الكفر في إبقاء بعض الناس على ما هم عليه من الكفر، أو حث من كان مؤمنًا لينتقل من الإيمان إلى الكفر، أغروهم بخلاف هذه القاعدة تمامًا، فقالوا - كما حكى الله عنهم-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢ - ١٣].

ولو تأملت كلام العلماء في كتب التفسير والحديث والعقائد والفقه وغيرها؛ لرأيت عجبًا من كثرة الاستدلال بهذه القاعدة في مواطن كثيرة:

فكم من رأي نقَضَه فقيهٌ بهذه الآية! بل كم مسألة عقدية صار الصواب فيها مع المستدل بهذه الآية! والمقام ليس مقام عرض لهذه المسائل، بل المقصود التنبيه على عظيم موقعها.

وإذا أردنا أن نبحث عن أمثلة تطبيقية لهذه القاعدة في كتاب الله، فإن من أشهر الأمثلة وأظهرها: تطبيق نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام لها، وذلك أنه حينما

احتال على أخذ أخيه بنيامين، بوضع السقاية في رحل أخيه؛ جاء إخوته يقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، فأجابهم يوسف قائلًا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

قارن هذا -بارك الله فيك- بقول فرعون حينما قال له كهنته: إنه سيولد من بني إسرائيل غلامٌ ستكون نهاية ملكك على يده! فأصدر مرسومه الظالم بقتل جميع من يولد من بني إسرائيل -وهم بالآلاف، وربما بعشراتها- من أجل طفلٍ واحد فقط!! ولكن من كان يقول للناس: أنا ربكم الأعلى فلا يستغرب منه هذا الأمر!

وفي واقع من الناس مَن سار على هدي يوسف، فتراه لا يؤاخذ إلا من أخطأ أو تسبب في الخطأ، ولا يُوسِّع دائرة اللوم على من ليس له صلة بالخطأ؛ بحجة القرابة أو الصداقة أو الزمالة ما لم يتبين خلاف ذلك.

وفي المقابل: ففي واقع الناس من يأخذ المحسنين أو البرءاء بذنب المسيئين.

وإليك هذه الصورة التي قد تتكرر كثيرًا في واقع بيوتنا:

يعود الرجل من عمله متعبًا، فيدخل البيت فيجد ما لا يعجبه من بعض أطفاله - إما من إتلاف تحفة، أو تحطيم زجاجة - أو يرى ما لا يعجبه من قِبَلِ زوجته - كتأخرها في إعداد الطعام، أو زيادة ملوحة أو نقصها، أو غير ذلك من الأمور التي قد تستثير بعض الناس - فإذا افترضنا أن هذه المواقف مما تستثير الغضب، أو أن هناك خطأً يستحق التنبيه، أو التوبيخ، فما ذنب بقية الأولاد الذين لم يشاركوا في كسر تلك التحفة - مثلًا -؟! وما ذنب الأولاد أن يَصُبَ عليهم جام غضبه إذا قصرت الزوجة في شيء من أمر الطعام؟! وما ذنب الزوجة -مثلًا- حينما يكون المخطئ هم الأولاد؟! ومثله يقال في علاقة المعلم والمعلمة مع طلابهم، أو المسئول في عمله،

بحيث لا ينقلوا مشاكلهم إلى أماكن عملهم، فيكون من تحت أيديهم من الطلاب والطالبات أو الموظفين ضحية لمشاكل ليس لهم علاقة بها!!

هنا يستحضر المؤمن أمورًا، من أهمها: أن يتذكر هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ فإن هذا خيرٌ وأحسن تأويلًا، وأقرب إلى العدل والقسط الذي قامت عليه السماوات والأرض.

وثمة فهمٌ خاطئ لهذه القاعدة القرآنية: وهي أن البعض يظن أن هذه القاعدة مخالفة لما يراه من بعض العقوبات الإلهية التي تعم مجتمعًا من المجتمعات، أو بلدًا من البلدان، حينما تفشو المنكرات والفواحش والمعاصي، وسبب خطأ هذا الفهم، أن المنكر إذا استعلن به الناس، ولم يوجد من ينكره، فإن هذا ذنب عظيمٌ اشترك فيه كلُّ من كان قادرًا على الإنكار ولم ينكر، سواءٌ كان الإنكار باليد أو باللسان أو بالقلب وذلك أضعف الإيمان، ولا عذر لأحد بترك إنكار القلب، فإذا خلا المجتمع من هذه الأصناف الثلاثة -عياذًا بالله- مع قدرة أهلها عليها استحقوا العقوبة، وإن وجد فيهم بعض الصالحين.

تأمل معي قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

يقول العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1] في تفسير هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

---

(١) تفسير السعدي: (ص٣١٨).

ويوضح معنى هذه الآية الكريمة ما رواه الإمام أحمد: بسند حسن - كما يقول الحافظ ابن حجر[١] - من حديث عدي بن عميرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم -وهم قادرون على أن ينكروه- فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

وروى الإمام أحمد: في مسنده[٢] بسند جيد، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه».

وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[٣].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، يضيق المقام بذكرها، والمقصود إزالة هذا الإشكال الذي قد يعرض للبعض في فهم هذه القاعدة القرآنية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

◆◆◆◆

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ٤).
(٢) المسند: (١/ ١٧٨).
(٣) البخاري ح (٣٣٤٦)، ومسلم ح (٢٨٨٠).

obeikandl.com

قـواعــد قـرآنـيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

obeikandl.com

القاعدة التاسعة

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية العظيمة، التي هي أثر من آثار كمال علم الله وحكمته وقدرته في خلقه ﷻ، تلكم هي ما دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وهذه الآية جاءت في سياق قصة امرأة عمران، والدة مريم -عليهما السلام- يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٦].

وخلاصة القصة: أن امرأة عمران قد نذرت أن يكون مولودها القادم خادمًا لبيت المقدس، فلما وضعت مولودها، قالت معتذرة: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأن قدرة الذكر على خدمة بيت المقدس، والقيام بأعباء ذلك أكثر من الأنثى التي جبلها الله تعالى على الضعف البدني، وما يلحقها من العوارض الطبيعية التي تزيدها ضعفًا:

كالحيض والنفاس[1].

ولقد بين القرآن هذا التفاوت بين الجنسين في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾: وهم الرجال ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: وهن النساء، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وذلك لأن الذكورة كمال خلقي، وقوة طبيعية، وشرف وجمال، والأنوثة نقص خَلْقي، وضعف طبيعي، كما هو محسوس مشاهد لجميع العقلاء، لا يكاد ينكره إلا مكابر في المحسوس، وقد أشار جل وعلا إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]؛ فالأنثى تنشأ في الحلية، أي: الزينة -من أنواع الحلي والحلل- لتجبر بذلك نقصها الخَلْقي[2].

بل يقال: إن بعض ما جبل الله عليه الأنثى هو نوع من الكمال في حقها، وإن كان نقصًا في حق الرجال، «ألا ترى أن الضعف الخَلْقي والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجال، مع أنه يعد من جملة محاسن النساء التي تجذب إليها القلوب»[3].

هذا هو حكم الله القدري: أن الذكر ليس كالأنثى، وهذا حكم الأعلم بالحِكَم والمصالح ـ، هذا كلام الذي خلق الخلق، وعَلِمَ ما بينهم من التفاوت والاختلاف: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، **وقد تفرع على ذلك**: اختلاف بين

---

(١) ومن اللطائف في تركيب هذه القاعدة: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ مع أنه لو قيل: «وليست الأنثى كالذكر» لحصل المقصود، ولكن لما كان الذكر هو المقصود قُدّم في الذكر هنا، ولأنه هو المرجو المأمول؛ فهو أسبق إلى لفظ المتكلم. ينظر: التحرير والتنوير: (٣/ ٨٧).

(٢) ينظر: أضواء البيان (٣/ ٤٩٨) ط.الراجحي.

(٣) أضواء البيان: (٣/ ٥٠١).

الذكر والأنثى في جملة من الأحكام الشرعية -وإن كانا في الأصل سواء-.

وهذا الاختلاف في الأحكام الشرعية بين الذكر والأنثى راجع إلى مراعاة طبيعة المرأة من حيث خلقتها، وتركيبها العقلي، والنفسي، وغير ذلك من صور الاختلاف التي لا ينكرها العقلاء والمنصفون من أي دين، وليعلم المؤمن ههنا قاعدة تنفعه في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة، وهي: أن الشرع لا يمكن أن يفرق بين متماثلين، ولا يجمع بين متناقضين، وشأن المؤمن الحق أن لا يعارض الشرع بعقله القاصر، بل شأنه أن يتلمس الحكم من وراء ذلك التفريق، أو هذا الجمع.

ومن توهم أنهما سواء فقد أبطل دلالة القرآن والسنة على ذلك:

أما القرآن فإن القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها دليل واضح على هذا.

وأما السنة: فإن النبي ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال[1]، فلو كانا متساويين لكان اللعنُ باطلًا.

ولنتأمل شيئًا من حِكَمِ الله تعالى في التفريق بين الذكر والأنثى في بعض الأحكام الشرعية، ومن ذلك:

١- التفريق في الميراث:

اقتضت سنة الله أن يكون الرجل هو الذي يكدح ويتعب في تحصيل الرزق، وهو الذي يطلب منه دفع الميراث، والمشاركة في دفع الدية - عند قيام المقتضي لذلك - فالذكر مترقب دومًا للنقص من ماله، بعكس الأنثى فهي دومًا تترقب الزيادة في مالها: حينما يدفع لها المهر، وحينما ينفق عليها من قبل وليها.

يقول العلامة الشنقيطي: «وإيثارُ مترقب النقص دائمًا على مترقب الزيادة دائمًا

---

(١) البخاري ح (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

- لجبر بعض نقصه المترقب - حكمتُه ظاهرة واضحة، لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي»[1].

٢- التفريق في الشهادة:

وهذا نصت عليه آية الدين: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، كما دلت عليه السنة الصحيحة عن النبي ﷺ، وبين أن سبب هذا هو نقصٌ في عقلها.

وهذا التفريق -لمن تأمله- عين العدل، يقول الشيخ السيد رشيد رضا -مبينًا هذا المعنى-: «إن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية -التي هي شغلها- فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، يعني أن طبع البشر ذكرانًا وإناثًا أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها، ولا ينافي ذلك اشتغال بعض نساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية فإنه قليل لا يعول عليه، والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها»[2] انتهى.

ولا يظنن أحدٌ أن في ذلك انتقاصًا لقدرها، بل هو تنزيهٌ لها عن ترك مهمتها الأساسية في التربية والقرار في البيت، إلى مهمة أقل شأنًا وسموًا، وهي ممارسة التجارة والمعاملات المالية!

وقد أشار فريق من الباحثين إلى أن المرأة الحامل ينكمش عندها حجم الدماغ، ولا يعود لحجمه الطبيعي إلا بعد أشهر من وضعها.

---

(١) أضواء البيان: (٣/ ٥٠٠).

(٢) تفسير المنار: (٣/ ١٠٤).

وليُعلم أن هذا الحكم -أعني كون شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل- ليس مطردًا في جميع الأبواب، بل إنها مثل الرجل في بعض الأحكام، كشهادتها في دخول شهر رمضان، وفي باب الرضاع، والحيض، والولادة، واللعان وغير ذلك من الأحكام.

ونحن بحمد الله مؤمنون بحكم الله وقدره، ولا تزيدنا البحوث الحديثة إلا يقينًا، ونقطع بأن أي بحث يخالف صريح القرآن فنتيجته غلط، وإنما أتي صاحبها من سوء فهمه.

وليس هذا التفريق بين الذكر والأنثى كله في صالح الرجل، بل جاءت أحكام تفرق بينهما تفريقًا لصالح المرأة - إن صحّت العبارة -، ومن ذلك: أن الجهاد لا يجب على النساء لطبيعة أجسادهن، فسبحان العليم الحكيم الخبير.

إذا تبين هذا؛ فعلى المؤمن أن يحذر من كلمة راجت على كثير من الكتاب والمثقفين، وهي كلمة «**المساواة**» في مقام الحديث عن موضوع المرأة، وهي كلمةٌ لم ترد في القرآن بهذا المعنى الذي يورده أولئك الكتاب، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ **والصواب** أن يعبر عن ذلك **بالعدل**؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، ولم يقل: يأمر **بالمساواة!** لأن في كلمة **المساواة** إجمالًا ولبسًا بخلاف **العدل**، فإنها كلمة واضحة بينه صريحة في أن المراد أن يعطى كل ذي حق حقه.

إن دلالة **العدل** تقتضي أن يتولى الرجل ما يناسبه من أعمال، وأن تتولى المرأة ما يناسبها من أعمال، بينما كلمة مساواة: تعني أن يعمل كلٌّ من الجنسين في أعمال الآخر!

ومدلول كلمة **العدل**: أن تعمل المرأة عددًا من الساعات يناسب بدنها وتكوينها الجسمي والنفسي، بينما مقتضى **المساواة**: أن تعمل المرأة نفس ساعات الرجل، مهما اختلفت طبيعتها!

وهذا كلّه عين المضادة للفطرة التي فطر الله عليها كلًا من الرجل والمرأة!

ولهذا لما أصرت بعض المجتمعات الغربية على هذه المصادمة للفطرة، وبدأت تساوي المرأة بالرجل في كل شيء ذاقت ويلاتها ونتائجها المرة، حتى صرخ العقلاء منهم -رجالًا ونساء- وكتبَوا الكتب والرسائل التي تحذر مجتمعاتهم من الاستمرار وراء هذه المصادمة، ومن ذلك:

١- ما قالته دافيسون -زعيمة حركة كل نساء العالم-: «هناك بعض النساء حطمن حياتهن الزوجية عن طريق إصرارهن على **المساواة** بالرجل، إن الرجل هو السيد المطاع، ويجب على المرأة أن تعيش في بيت الزوجية، وأن تنسى كل أفكارها حول **المساواة**»[(١)].

٢- وهذه هيلين أندلين - وهي خبيرة في شؤون الأسرة الأمريكية - تقول: «إن فكرة **المساواة** - التماثل- بين الرجل والمرأة غير عملية أو منطقية، وإنها ألحقت أضرارًا جسمية بالمرأة والأسرة والمجتمع» ا.هـ.[(٢)]

٣- أما رئيسة الجمعية النسائية الفرنسية -رينيه ماري- فتقول: «إن المطالبة **بالمساواة** الكاملة بين الرجل والمرأة تصل بهما إلى مرحلة الضياع، حيث لا يحصل أحد من الطرفين على حقوقه»ا.هـ[(٣)]، ولو رجعنا إلى لغة الأرقام التي أجريت في بلاد الغرب لطال بنا المقام.

---

(١) العدوان على المرأة (ص١٠٢). فؤاد العبد الكريم.

(٢) قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية. فؤاد العبد الكريم: (ص٢٧٨).

(٣) السابق (ص٢٦٩).

٤- وهذه كلمات قالتها امرأة من أشهر دعاة الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة في منطقة الخليج[١]:

«سأعترف اليوم بأنني أقف في كثير من الأشياء ضد ما يسمى بـ (حرية المرأة)، تلك الحرية التي تكون على حساب أنوثتها، على حساب كرامتها، وعلى حساب بيتها وأولادها، سأقول: إنني لن أحمّل نفسي -كما تفعل كثيرات- مشقة رفع شعار المساواة بينها وبين الرجل، نعم أنا امرأة!

ثم تقول: هل يعني هذا أن أنظر إلى البيت -الذي هو جنة المرأة- على أنه السجن المؤبد، وأن الأولاد ما هم إلا حبل من مسد يشد على عنقي؟ وأن الزوج ما هو إلا السجان القاهر الذي يكبّل قدمي خشية أن تسبقه خطوتي؟ لا، أنا أنثى وأعتز بأنوثتي، وأنا امرأة أعتز بما وهبني الله، وأنا ربة بيت، ولا بأس بعد ذلك أن أكون عاملة أخدم خارج البيت نطاق الأسرة، ولكن -ويا رب اشهد-! بيتي أولًا، ثم بيتي، ثم بيتي، ثم العالم الآخر»[٢] انتهى.

وبعد هذا كله: فماذا يقال عمن سوّى بين الذكر والأنثى، والذي خلَقهما يقول: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؟

إنك لا تتعجب أن يقع الرد لهذا الحكم القدري من كفار أو ملاحدة، وإنما تستغرب أن يقع هذا من بعض المنتسبين لهذا الدين، والذين يصرحون في مقالاتهم وكتاباتهم بأن هذا الحكم كان في فترة نزول الوحي يوم كانت المرأة جاهلة لم تتعلم! أما اليوم فقد تعلمت المرأة، وحصلت على أعلى الشهادات!

وهذا الكلام خطير جدًا، وقد يكون رِدّةً عن الدين؛ لأنه ردٌّ على الله تعالى، فإنه

---

(١) هي الكاتبة ليلى العثمان.

(٢) رسائل إلى حواء: (٣/ ٨٥).

هو الذي قدَّر هذا الحكم، وهو الذي يعلم ما ستؤول إليه المرأة إلى يوم القيامة.

ثم إن التاريخ والواقع يُكذِّب هذه المقولة من جهتين:

الأولى: أن تكوين المرأة النفسي والبدني (الفسيولوجي) لم يتغير منذ خلقها الله تعالى، فأمُّنا حواء من ضِلع أبينا آدم، وإلى أن يرث الله ومن عليها! ولم يربط الله تعالى ذلك بعلمٍ تتعلمه، أو بشهادة تحصل عليها.

والجهة الثانية لبيان خطأ هذه المقولة:

أن هذا الحكم يدخل فيه أمهات المؤمنين -رضوان الله عليهن-، وهن -بلا ريب- أعلم نساء هذه الأمة، وأتقاهن، ومن هي التي تبلغ عشر علمهن؟! ومع ذلك لم تتعرض واحدة منهن على هذه الأحكام الشرعية التي سمعنها مباشرة من زوجهن رسولِ الله ﷺ، بل قابلن ذلك بالانقياد والتسليم، والرضى والقبول، وجرى على هذا الهدي من سار على نهجهن من نساء المؤمنين إلى يومنا هذا.

ولعلي أختم هذه القاعدة بهذه القصة الطريفة - التي سمعتها من أحد الباحثين، وهو يتكلم عن زيف الدعوى التي تطالب بفتح الباب للنساء؛ لكي يمارسن الرياضة كما يمارسها الرجال - يقول هذا الباحث وفقه الله:

إن أحد العدَّائين الغربيين المشهورين تعرّف إلى امرأة تمارس نفس رياضة العدو، فرغب أن يتزوجها، وتمّ له ما أراد، لكن لم يمض سوى شهرين على زواجهما حتى انتهى الزواج إلى طلاق! فسئل هذا العدّاء: لماذا طلقتها بهذه السرعة؟! فقال: لقد تزوجت رجلًا ولم أتزوج امرأة!! في إشارة منه إلى القسوة في التمارين - التي تتطلبها رياضة العدو - أفقدتها أنوثتها، فأصبحت في جسم يضاهي أجسام الرجال، وصدق الله العظيم، العليم الخبير: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾، فهل من مُدَّكر؟.

القاعدة العاشرة

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾

هذه قاعدة جليلة من القواعد القرآنية العظيمة، تشع منها القدرة الإلهية؛ لتساند جند الإيمان في كل زمان ومكان.

إن النصر كلمة تعشقها النفوس، وتسعى لها جميع الأمم، وتتطلع لها كل الدول، وهي غاية تختلف الأمم في الوسائل التي تتحقق بها، وإن اتفقت في جملةٍ منها، لكن ثمة معنى شريف، يلفت إليه القرآن أتباعه؛ لترسيخ سبب من أعظم الأسباب التي لا يجوز أن تغيب عن أذهان المؤمنين وهم يقاتلون أعداءهم، أو ربما استعجلوا بقطف ثمرة النصر، ونسيان أسباب تثبيته.

تأتي هذه القاعدة لتقول لأهل القرآن: إن حقيقة النصر إنما هي «بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ونصرة رسله وأتباعهم، ونصرة دينه وجهاد أعدائه، وقهرهم حتى تكون كلمته جل وعلا هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى»[1].

وهذه القاعدة جاءت ضمن آيتين كريمتين، أبرزتا أسباب النصر، يقول تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) أضواء البيان: (٥/ ٢٦٥).

obeikandl.com

﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

«ففي هاتين الآيتين الكريمتين وعدَ اللهُ بالنصر من ينصرُه وعدًا مؤكدًا بمؤكدات لفظية ومَعنوية:

أما المؤكدات اللفظية: فهي القسمُ المقدَّرُ؛ لأنَّ التقديرَ: والله لينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ، وكذلك اللامُ والنونُ في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ كلاهُما يفيدُ التوكيدَ.

وأمَّا التوكيدُ المعنويُّ: ففي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو سبحانه قَويٌّ لا يضْعُفُ، وعزيزٌ لا يُذَلُّ، وكلُّ قوةٍ وعزةٍ تُضَادُّهُ ستكونُ ذُلًا وضعفًا.

وفي قولِه: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ تثبيتٌ للمؤمنِ عندما يسْتَبعِدُ النصر في نَظَره لِبُعد أسبابِه عندَه، فإنَّ عواقبَ الأمورِ لله وحْدَهُ، يغَيِّر سبحانَه ما شاءَ حَسْبَ ما تَقْتَضِيه حكمَتُه»[1].

وهذه الجملة التي تضمنتها هذه القاعدة جاءت عطفًا على جملة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود، ﴿لَّهُدِّمَتْ[2] صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[3] وهذه هي معابد أهل الملل الكبرى، ثم قال سبحانه بعد ذلك -مؤكدًا هذه القاعدة والسنة الإلهية المطردة-: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ

---

(١) مجالس شهر رمضان (٩٥) للعثيمين.

(٢) وفي الآية قراءتان: بتخفيف الدال: (هُدِمَتْ) وبالتشديد على التكثير، فالتخفيف يكون للقليل والتكثير، والتشديد يختص بالتكثير، ينظر: تفسير البغوي (٥/ ٣٨٩).

(٣) «فإن قيل: لم قدمت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدم بناء. وقيل: لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر، كما أخر السابق في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]». ينظر: تفسير القرطبي (١٢ / ٧٢).

ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

والسؤال: كيف يكون نصر الله؟ وهل الله محتاج إلى نصره وهو الغني القوي العزيز؟

والجواب على ذلك: أن نصره يكون بنصرة دينه، ونصرة نبيه ﷺ في حياته، ونصرة سنته بعد مماته، وتتمةُ الآيةِ التي بعدها تكشفُ حقيقة النصر الذي يحبه الله ويريده، بل هو النصر الكفيلُ باستمرار التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

ولذا، ما نُصِرَ دين اللهُ بأعظم من إظهار هذه الشعائر العظيمة:

الصلاة: التي هي صلةٌ بين العباد وربهم، وبها يستمدون قوتهم الحسية والمعنوية، وراحتهم النفسية.

وإيتاءُ الزكاةِ: «فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خَلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج، وحققوا لها صفة الجسم الحي»[(١)].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وفيه إصلاحٌ لغيرهم، فالناس ما بين جاهل أو غافل، فهؤلاء يؤمرون بالخير ويُذكرون به، أو عاصٍ ومعاندٍ، فهؤلاء ينهون عن المنكر.

فمتى ما علم الله من أي أمة من الأمم أو دولة من الدول أنها ستقيم هذه الأصول الأربعة من أصول التمكين؛ أمدّها الله بتوفيقه، وعونه وإن تكالبت عليها الأمم، وفي

---

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٤٢٧).

سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، ومن سار سيرتهم أصدق الشواهد وأنصعها.

أما إذا علم الله من أحوالهم أنهم إذا عادوا إلى الأرض ومُكِّنوا فيها ما أقاموا صلاةً، ولا آتوا زكاةً، ولا رجحوا معروفًا، ولا قبحوا منكرًا، فإن الله تعالى يكلهم إلى أنفسهم، ويسلط عليهم عدوهم، أو يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض، وفي التاريخ عبرة!

وإنك لتعجب -بعد هذا الإيضاح الرباني لأصول النصر والتمكين- من أناس ينتسبون إلى الإسلام، كيف تنكبوا عنه؟ أم كيف استبدلوا به مذاهب لا دينية أصلًا؟ ولا ينسى الناس قول أحد القياديين في منظمة التحرير الفلسطينية -لمّا أرادوا إعلان الدولة الفلسطينية-: نريدها دولةً علمانية!

إن انتصار اليهود على هؤلاء أقرب؛ فهم أهل كتاب ودين وإن كانوا قتلةً مجرمين.

إن من يقرأ القرآن الكريم بأدنى تأمل، سيجد الحديث فيه ظاهرًا وبيِّنًا عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة في مواطن متفرقة، وهي تحكي مواقف وقعتْ لأشرف جيش عرفته الدنيا، قائده محمد رسول الله ﷺ، وجنوده الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

لقد تساءل أصحاب النبي ﷺ في أُحد عن سبب الهزيمة؟ فجاء الجواب من السماء: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وفي حنين، وقع إعجاب من بعض مُسلمة الفتح بكثرتهم، فكاد الجيش أن ينهزم، فجاء التعقيب الذي تضمن تذكيرًا بمنن الله عليهم في مواطن كثيرة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وفي حديث القرآن عن غزوة بدر -في سورة الأنفال- تصريح بأهم أسباب النصر وأخطر أسباب الهزيمة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٦-٤٧].

ونجد تصريحًا بسبب آخر من أسباب النصر ألا وهو الإيمان، إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

والسؤال: أين النصر اليوم عن المسلمين؟ المسلمون في بلدان كثيرة مضطهدون مهزومون، يعيشون ضعفًا ويذوقون عجزًا!

أين النسخ المكررة من يوم الفرقان في بدر الكبرى؟ ويوم الأحزاب؟ واليرموك؟ ونهاوند؟ أو يوم كُسِرَ التتار حين غزوا بلاد الإسلام في أوائل القرن الثامن؟!

إنني حرصتُ أن أنقل إجابات أربعة من علماء الإسلام في القديم والحديث، ومن نواحٍ متفرقة، من المغرب والمشرق؛ لنرى كيف ينظر هؤلاء العلماء إلى الداء والدواء:

يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٧١هـ) -مجيبًا على هذا السؤال القديم في ضوء هذه القاعدة: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾-:

«هكذا يجب علينا نحن أن نفعل[1]! لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قُدَّام اليسير من العدو كما شاهدناه غير

(١) أي: أن ننصر دين الله.

مرة! وذلك بما كسبت أيدينا وفي البخاري: قال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم، وفيه مسند[1] أن النبي ﷺ قال: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»[2]، فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة، قال الله تعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا! فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه! لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقًا وغربًا، برًا وبحرًا، وعمت الفتن وعظمت المحن! ولا عاصم إلا من رحم»[3].

ويقول الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٢٨هـ) مشخصًا الداء ومبينًا الدواء:

«إذا كان في المسلمين ضعف، وكان العدو مستظهرًا عليهم؛ كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم - إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنًا وظاهرًا، وإما بعدوانهم بتعدي الحدود باطنًا وظاهرًا-، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى

---

(١) أي: في صحيح البخاري حديث مسند.

(٢) صحيح البخاري ح (٢٨٩٦)، وفي رواية النسائي: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم»، وله شاهد من حديث أبي الدرداء عند أحمد والنسائي بلفظ: «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»، قال ابن بطال: تأويل الحديث أن الضعفاء أشد إخلاصًا في الدعاء، وأكثر خشوعًا في العبادة؛ لخلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا». فتح الباري لابن حجر: ٦/ ٨٩.

(٣) تفسير القرطبي: (٣/ ٢٥٥).

﴿ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

وللعلامة الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ١٣٥٤هـ) جواب عن هذا السؤال، يحسن إيراده، وهو العالم الذي عاش فترة ضعف وهوانٍ شديدين مرت بها أمة الإسلام:

«ولكننا نرى كثيرًا من الذين يدعون الإيمان في هذه القرون الأخيرة غير منصورين، فلا بد أن يكونوا في دعوى الإيمان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين، ولأهوائهم لا لله ناصرين، ولسننه في أسباب النصر غير متبعين، وإن الله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، وإنما ينصر المؤمن الصادق وهو من يقصد نصر الله وإعلاء كلمته، ويتحرى الحق والعدل في حربه لا الظالم الباغي على ذي الحق والعدل من خلقه، يدل على ذلك أول ما نزل في شرع القتال قوله تعالى -من سورة الحج-: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩] إلى قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فأما الرسل الذين نصرهم الله ومن معهم فقد كانوا كلهم مظلومين، وبالحق والعدل معتصمين، ولله ناصرين. وقد اشترط مثل ذلك في نصر سائر المؤمنين، فقال في -سورة القتال-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، والإيمان سبب حقيقي من أسباب النصر المعنوية، يكون مرجحا بين من تساوت أسبابهم الأخرى، فليس النصر به من

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية -رشيد رضا-: (١/ ٥٨).

خوارق العادات»[1].

أما العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ١٣٧٦هـ) فيضمن بيانه عن الداء والدواء حديثًا مهمًا عن الفأل، فيقول:

«إيمان ضعيف، وقلوب متفرقة، وحكومات متشتتة، وعداوات وبغضاء باعدت بين المسلمين، وأعداء ظاهرون وباطنون، يعملون سرًّا وعلنًا للقضاء على الدين، وإلحاد وماديات، جرفت بتيارها الخبيث، وأمواجها المتلاطمة الشيوخَ والشبان، ودعايات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق!!

ثم إقبال الناس على زخارف الدنيا، وبحيث كانت هي مبلغ علمهم، وأكبر همهم، ولها يرضون ويغضبون، ودعاية خبيثة للتزهيد في الآخرة، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا وتدمير الدين، واحتقار واستهزاء بالدين وما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكبار بالمدنيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشرها وشررها قد شاهده العباد...

ولكن مع ذلك: فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصورًا على الأسباب الظاهرة، بل يكون ملتفتًا في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب، الكريم الوهاب، ويكون الفرج بين عينيه، ووعده الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل الله بعد عسر يسرًا، وأن الفرج مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات وحلول المفظعات»[2].

نسأل الله تعالى أن يعز دينه وأن يجعلنا من أنصاره، وأن يُظهر أولياءه، ويُذل أعداءه.

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣١٧).

(٢) بهجة قلوب الأبرار: (ص٢٣٠).

obeikandi.com